أساليب التأثير النفسي في سورة القيامة

إبراهيم لبيب

للقرآن الكريم تأثيرٌ عجيب في النفوس يستشعره كلّ مَن قرأ القرآن وفقه معانيه، وهذه المقالة تُبرز طرفًا من هذا التأثير من

خلال سورة من سور القرآن وهي سورة القيامة، بعد تمهيد وجيز يعرِّف بالسورة وموضوعاتها ومقصودها.

الحمد الله الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على نبيّنا وحبيبنا الذي أرسله اللهُ للناس كافة بشيرًا ونذيرًا.

أمّا بعد:

فإنّ للقرآن الكريم تأثيرًا عجيبًا في النفوس، يستشعر المرءُ أثره ويعجز لسانه عن ذِكْر معرفة سببه، لا يكاد المرء ينتهي من سماعه بإنصات إلا ويخرج بحالٍ غير التي كان فيها قبل السماع.

إنه يحاصر النفس ويصل إلى أعمق أعماقها فلا يبقى أمام القارئ له أو السامع إلا الإذعان والخضوع لعظمة قائله؛ وإلا فهي المكابرة والعناد، قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا) [الإسراء: 82].

لذا يحسُن بكلّ مهتمّ بموضوعات إعجاز القرآن إبراز هذه الخصيصة من خصائص القرآن، ألا وهي عظيم تأثيره على النفس البشرية، وإعجازه في هذا الأمر[1] ؛ لأنّ هذا يساعدنا في حسن فهمنا للقرآن، ويفيدنا كثيرًا في خطابنا الوعظي وكيف نؤثر في الناس ونوقظ القلوب من غفلتها، وقد اخترنا في هذا المقال سورة من سور كتاب الله تُبرز هذا التأثير العظيم الذي سلكه القرآن في التأثير على النفس البشرية

لإيصال الرسالة بأبلغ أسلوب وأعظم تأثير وهي سورة القيامة؛ لكونها َت أمورًا مهمّة في سياق التأثير النفسي كما سيتّضح، وعليه فسنحاول في هذه المقالة بيان أساليب تأثير القرآن في النفس في هذه السورة الكريمة، وذلك بعد تمهيد وجيز يعرِّف بالسورة وموضوعاتها ومقصودها.

تمهيد: التعريف بسورة القيامة وموضوعاتها:

سورة القيامة هي سورة مكّية، ومدار السورة هو إثبات البعث والتذكير بما سيلقاه الإنسان يقينًا في الحياة الآخرة جزاء أعمالها؛ كما تعرّضت السورة لوصف بعض أهوال يوم القيامة، وأثبتت الجزاء والحِساب عقًلا ونقًلا، وبيّنَت شهادةَ الإنسان على نفسهِ في هذا اليوم، ثم في ذروة هذه الأحداث الجسام، نجد أربع آيات يَعِدُ اللهُ فيها نبيه بتحفيظه القرآن وتيسير قراءته وفهمه وبيانه، ثم بي نت السورة أن حبّ الإنسان للدنيا العاجلة، جعله يغفل عن الاستعداد للآخرة، ثم بيّن تعالى انقِسام الناس يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء، ثم رجعت بالزمن مرة أخرى إلى الحياة الدنيا ولحظة خروج الروح وشدّته، ثم بيان بعض أعمال الكفار التي أوجبت لهم الخلود في النار، وفي نهايتها أثبتت البعث بالإقناع العقلي والفطري والاستدلال بقدرة الله على بدء الخَلْق ، وهي طريقة القرآن المطّردة في إثبات البعث: أنّ الذي بَدَأ الخلق أهون عليه -باعتبار حال المخاطب- أن يعيده مرة ثانية.

لماذا الحديث عن سورة القيامة وتأثيرها النفسي في إيصال رسالتها؟!

من أهم الموضوعات التي تحدَّث عنها القرآن بعد تعظيم الله وإفراده بالعبادة وصدق

رسله =الحديثُ عن يوم القيامة وما فيه من أهوالٍ؛ وذلك لأن مصير الإنسان وحياته الأبدية بعد الموت إنما يتحدّد بناءً على إيمانه في الحياة الدنيا.

لذا ركّز القرآنُ الحديثَ عن يوم القيامة ووصف المشاهد الحية التي توقظ القلوب من غفلتها، ودعا الناس -كلّ الناس مؤمنهم وكافرهم- إلى الاستعداد لهذا اليوم، ورغّب في الجنة وأخبر أن الفوز الحقيقي إنما يكون في النجاة من النار، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

أيْ أنّ حقيقة الدنيا، أنها مجرّد متاع حسن المظهر يغترُّ به الناس، ولكنها على خلاف ما تبدو لهم.

وقد وقع الاختيار على سورة القيامة، لإظهار طريقة تأثير القرآن في النفوس؛ إذْ إنها سلكت أساليب متنوّعة غير معهودة لدى البشر في التأثير على النفس كما سيتضح.

وفيما يأتي بيان لجوانب العظمة في هذه السورة العظيمة وكيفية إيصالها للمقصود بأوجز عبارة وأعظم تأثير في النفس.

الناظر في سورة القيامة يلحظ احتواءها على عدد من الأساليب التي تعِين على إحداث تأثير نفسي هائل لدى الإنسان متى قرأها وتدبّرها وأمعن فيها النظر، وفيما يأتي نبيّن هذه الأساليب ونبسط فيها القول:

أوّلًا: مناسبة القسَم لموضوع السورة ودلالاته النفسية:

من أسرار القرآن وجماله معرفة أسرار القسَم ومناسبته لموضوع السورة[2] ، فهذه السورة -كما سبق- موضوعها الرئيس هو يوم القيامة؛ فلذا أقسم الله به في أوّلها، كما أقسم بالنفس اللوامة: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) [القيامة:1-2].

فما سرّ هذا القسَم وما جواب القسَم؟ وما الدلالة النفسية له؟

أمّا عن سرّ القسَم؛ فقد أجاب عنه الإمام ابن القيم: «فقد تضمَّن هذا الإقسامُ ثبوتَ الجزاء، ومستَحَقَّ الجزاء، وذلك يتضمَّن إثبات: الرسالة، والقرآن، والمَعاد. وهو -سبحانه- يُقْسِم على هذه الأمور الثلاثة، ويقرِّرُها أبلغ التقرير، لحاجة النفوس إلى معرفتها، والإيمان بها»[3].

وما المقصود بالنفس اللوامة؟

اختلف في المقصود بالنفس اللوّامة هنا، هل هي النفس المؤمنة أم النفس الكافرة أم مطلق النفس، والأقرب لسياق السورة أنها كلّ نفس ، فصفة اللوم صفة متأصّلة في كلّ نفس بشرية، «قال الفَرّاءُ: ليس من نَفْسٍ بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تَلُومُ نفسها، إنْ كَانَتْ عَمِلَتْ خيرًا قالتْ: هَلَّا ازْدَدْتُ، وإنْ عمِلَتْ شرًّا قَالَتْ: يا لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ»[4].

قال شيخ الإسلام: «وقد قيل: إنّ النفس تكون لوّ امة وغير لوامة وليس كذلك. بل نفس كلّ إنسان لوّامة فإنه ليس بشر إلا يلوم نفسه ويندم إما في الدنيا وإمّا في الآخرة، فهذا إثبات النفس»[5].

سِرّ الجمع بين القسَم بيوم القيامة والنفس اللوامة:

يقول ابن القيم: «وجمع -سبحانه- في القَسَم بين: مَحَلّ الجَزاء وهو يوم القيامة، ومَحَلّ الكَسْب وهو (النَّفْس اللوَّامة).

ونبَّهَ -سبحانه- بكونها (لوَّامَة) على شِدَّة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يُعَرِّفُها الخيرَ والشَّرّ، ويَدُلُّها عليه، ويرشدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه؛ فيجعلها مُرِيدةً للخير، مُؤثِرةً له، كارهةً للشَّرِّ، مُجَانبةً له، لتَخْلُصَ من اللَّوم، أو من سوء عاقبة ما تلوم عليه.

ولأنَّها متلوِّمةٌ متردِّدةٌ لا تَثْبُتُ على حالٍ واحدةٍ؛ فهي محتاجةٌ إلى من يُعَرِّفُها ما هو أنفع لها في مَعاشِها ومَعادِها فتُؤثِرُهُ، وتَلُومُ نفسَها عليه إذا فاتها، فَتَتُوبُ منه إن كانت سعيدةً، ولتقوم عليها حُجَّةٌ عَدْلِهِ، فيكون لَوْمُها في القيامة لنفسها عليه لَوْمًا بِحَقٍّ، قد أعذَر اللهُ خالقُها وفاطرُها إليها فيه.

ففي صفة (اللَّوْم) تنبيهٌ على ضرورتها إلى التصديق بالرِّسَالة والقرآن، وأنَّها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه أَلْبَتَّة.

ولـمَّا كان يومُ مَعادِها هو مَحَلَّ ظهورِ هذا اللَّوْم وترتّبِ أثرِهِ عليه =قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ»[6].

ثانيًا: إبهام جواب القسم، وأثره:

بعد أن بدأت السورة بهذا القسَم؛ سيأتي سؤال على ذهن قارئ السورة أو سامعها؛

ما هو جواب القسَم؟!

للمفسّرين في ذلك قولان: إمّا أن جواب القسَم محذوف أو أنّه مقدَّر.

أمّا عن حذف جواب القسم فله نظائر في القرآن وله فوائد بلاغية؛ كتعظيم المقسَم عليه، واتساع المعاني التي يمكن أن تندرج تحت القسَم.

وأمّا عن كونه مقدَّرًا فإن في هذا إعمالًا للذّهن وشحذًا للهمم لقراءة السورة لآخرها ليُعرف المقسَم عليه.

وعند التحقيق، سنجد أنّ الأقرب أنّ جواب القسم مُقدَّر، وأنه اشتمل على أمرين، وهما: صدق الخبر، وصدق المُخبِر بهذا الخبر.

أمّا عن صدق الخبر: فهو إثبات المعاد، وقدرة الله على بَعث الأجساد ثم حساب العباد على أعمالهم بالثواب والعقاب، وهذا ظاهر تمامًا من سياق الآيات.

أمّا عن صدق المُخبِر به: فيشمل صدق الصادق المعصوم -صلى الله عليه وسلم- وصدق رسالته وصدق القرآن الذي أخبر بهذا اليوم عظيم الأهوال، وهو ما تمت الإشارة إليه في هذه الآيات الأربع.

وقد مرّ بنا كلام ابن القيم أن القسَم كما يتضمّن إثبات يوم الحساب فهو يتضمن إثبات الرسالة والقرآن.

ولا شكّ أن الاقتران بين ذكر النبأ العظيم -وهو يوم القيامة- وذكر المخبِر به -وهو

القرآن وهو أيضًا نبأ عظيم- أبلغ في تصديق الخبر، وهذه طريقة القرآن في كثير من السور، فمن أمثلة ذلك:

- ما جاء في سورة الواقعة حين وصَفت السورة أحوال السابقين المقرَّ بين ثم أحوال أصحاب اليمين ثم أصحاب الشمال، ثم بيان قدرة الله على الخلق والبعث وتكف له بالأرزاق، وبعد كلّ هذا جاء القس م على صدق القرآن الذي أخبر بكلّ هذه الأمور الغيبية عظيمة الأهمية؛ فقال تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ)[الواقعة: 75- 78].

- وفي سورة الحاقة: بعد أن ذكَرَ الله تعالى أحداث يوم القيامة: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)[الحاقة: 13] ، ثم ذكر بعدها الجزاء: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)[الحاقة: 19] ، وبعدها وصف حال أهل الشمال والعياذ بالله: (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)[الحاقة: 25]، إلى أن قال تعالى بعدها مقسِمًا بصدق القرآن الذي أخبر بكلّ هذه الأمور المصيرية: (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)[الحاقة: 38- 40].

- وكذا في سورة التكوير، بعد ذِكر تغيّر أحوال العالم إيذانًا بقيام الساعة من تكوير للشمس، وانكدار للنجوم، وتسيير للجبال، إلى آخره، قال بعدها تعالى: (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)[التكوير: 15- 19].

ولو تتبّعنا هذا في القرآن لطال بنا الحديث، والمقصود أنّ الجمع بين الخبر العظيم وصدق المخبر به مع تعزيز هذا بالقس م، فيه باعث عظيم على تصديق الخبر.

وكأن المتلقّي قد حوصر من جميع الجهات وليس أمامه إلا التصديق؛ وإلا فهو العناد.

ثالثًا: المقابلة بين حال المُعرِض وحال المؤمن:

من الأمور النفسية المعروفة تربويًا ويذكرها كذلك أهل اللغة والبلاغة أن إظهار الشيء ومقابله يبرز المعنى ويؤثّر في النفس تأثيرًا بالغًا، ولهذا وصف الله -عز وجل- كتابه بقوله: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...)[الزمر: 23].

ومما قيل في معنى (مثاني) أنه ذكر الشيء وضدّه.

قال ابن كثير في تعليقه على وصف القرآن بالمثاني: «...وتارة تكون بذِكْر الشيء وضده؛ كذِكْر المؤمنين ثم الكافرين، وكصفة الجنة ثم صفة النار، وما أشبه هذا، فهذا من المثاني كقوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)[الانفطار: 13- 14] ...» إلى أن قال: «ونحو هذا من السياقات فهذا كلّه من المثاني، أي في معنيين اثنين»[7] .

وقد جاء في السورة هذه المقابلة والتناظر في مواضع؛ «الشمس والقمر، إنكار الكافر قدرة الله على جمع عظامه مع إثبات قدرة الله على جمع البنان، بما قدّم وأخّر، العاجلة والآخرة، تحبون وتذرون، وجوه ناضرة ووجوه باسرة، الزوجين الذّكر والأنثى، الحرية في الدنيا والتفاف الساق بالساق في الدار الآخرة، المقابلة بين التصديق والصلاة لأهل الإيمان والتكذيب والتولّي لأهل الفجور: (فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)[القيامة: 31- 32].

ومن ذلك إدراج الآيات الأربع في وسط السورة من قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[القيامة: 16- 19].

فهذه الآيات الأربع التي قد تبدو أجنبية عن موضوع السورة لأول وهلة؛ إلا أنه عند التأمّل سنجد أنها في الحقيقة تمزج بين صورتين متقابلتين متباينتين تمام التباين للتدليل على معانٍ نفسية عميقة.

فتبيّن لنا البون الشاسع بين هؤلاء الذين استسلموا لشهواتهم ففَجَرُوا أمامهم، ورفضوا الحقّ لا لشبهة عقلية وإنما لحبهم للعاجل ولو كان فيه هلاكهم ، وبين المؤمنين الذين أخذوا الأمر بجدّ، وإمامهم في ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يسارع في التلقّظ بكلمات الوحي حرصًا منه على تبليغه للناس لعلّهم يَرشدون وينجون من عذاب الله»[8].

وقد كان -صلى الله عليه وسلم- يقول: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا﴾[9].

ولا يخفى أنّ هذا التقابل يؤثّر تأثيرًا بالغًا في النفس البشرية.

وقد تفطّن إلى أهمية هذا التقابل في الصور المتقابلة الروائيون وكُتّاب السيناريو المتأخِّرون، فنجد في الأعمال الدرامية التي نالت قدرًا كبيرًا من المشاهدات، فيها هذا المزج بين المشاهد المتقابلة بين أطراف الصراع، فتجد مشهدًا هنا ومشهدًا هناك وتتنقّل هذه المشاهد المتباينة بطريقة سريعة ومباغتة، تجعل قارئ الرواية أو مشاهد

العمل منجذبًا ومشدوهًا طوال متابعته للعمل!

إنها مقابلة توقظ النفس الغافلة، فكأنّ قارئ السورة يشاهد صورة حيّة لهذا المعرض الغافل الذي يريد أن يفجر أمامه، ثم يقابل هذه الحالة حالُ سيد المؤمنين -صلى الله عليه وسلم- وهو يتلقى الوحي بجدّ وحرص لإيمانه الراسخ بما سيأتي من أحداث عظام يوم القيامة.

رابعًا: الإقناع بتصوير المشاهد وتجسيدها:

إذا قلت لإنسانٍ ما أنّ يوم القيامة آتٍ لا محالة، فهذا خبر مجرّد يخاطب العقل، لكن إذا أخبرته عن تفاصيل هذا اليوم بمشاهد موصوفة وصفًا دقيقًا كأنه يراها؛ فإنك بذلك تكون قد خاطبت العقل والحسّ والعاطفة؛ ولا شك أن الخبر الذي يخاطب الحسّ والعاطفة أثبت من الخبر المجرّد.

ولهذا نجد كثيرًا في القرآن ضرب الأمثال التي تربط الأمر المعنوي بأمر حسّي ليعلق في الذّهن.

ولو تأمّلنا سورة القيامة من بدايتها إلى آخرها، سنجد أنّ المشاهد الحيّة هي السمة البارزة لها، فالسورة الكريمة حينما وصفت يوم القيامة وصفته بمشاهد مذهلة تصوّر ليس فقط تغيّر أحوال العالم العلوي والسفلي، بل تصوّر الأبصار التي تنظر إلى هذا العالم المتغيّر، فتذكر برق البصر، ثم تذكر خسف القمر وجمع الشمس والقمر، ثم بعدها تصف مشهد رؤية المؤمنين لربهم وأن وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، ثم تصف الوجوه الباسرة التي تظن أن يفع ل بها فاقرة، ثم بعدها بقليل

تصف مشهدًا حيًّا للحظة الاحتضار وما سيؤول إليه أمر هذا المكذّب بالبعث من صعود روحه والتفاف ساقه بساقه، فكلّ هذه الأخبار من يقرؤها أو يسمعها تقفز في ذهنه مباشرة صورًا حيّة مهيبة.

ومن ذلك أيضًا الآيات الأربع التي سبق ذكرها، فقد ذكرت لنا السورة مشهدًا حيًّا متناسبًا مع جوّ السورة لطريقة تلقّي الوحي الذي أخبر بكلّ هذه الأخبار الهائلة، وحرص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الشديد على تبليغه كما أُنزل عليه، والإخبار عن طريقة تلقّي الوحي أبلغ في التأثير وأثبت في الذّهن.

وكذلك مما يبيّن هذه المشاهد الحيّة، استعمال لغة الجسد، وهو عِلْم من العلوم الحديثة أفردت فيه مؤلّفات لأهميته وتأثيره؛ والمقصود أنّ السورة أظهرت هذه اللغة الجسدية في مواضع منها:

ذكر حركة البصر: (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ)، وحركة اللسان: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ)، وصورة الوجوه التي هي مرآة الجسد: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ)، ذكر الحشرجة لحظة خروج الروح: (كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ)، التفاف الساق بالساق وإن كان مجازيًّا: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)، حركة جسم المتكبّر الفاجر: (ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى).

خامسًا: الإجابة بما يدور في أعماق السائل لا بظاهر كلامه:

من أوجه التأثير النفسي في سورة القيامة، أنها لا تجيب فقط عن ظاهر كلام المُعرِض عن الله؛ بل تذكر له الدافع الباعث على تكذيبه!

فتأمّل روعة القرآن في سبر أغوار النفس التي تنكر البعث وتستبعد وقوع الجزاء والحساب! (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)[القيامة: 3].

إنّ السورة لم تردّ ابتداءً ردًّا عقليًّا صرفًا على شبهة إنكار البعث، بل لفتت الأنظار إلى أن إنكار البعث من الكافر ليس عن شبهة عقلية، بل حقيقة الأمر هي: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)[القيامة: 5] .

ففضح هذا الجواب ما في نفوس الكفار من سكرة الشهوات التي لا تريد أيّ رادع يردعها، كما قال تعالى عن قوم لوط في سورة الحجر: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[الحجر: 72].

فهذه السكرة جعلته يكفر بكلّ ما يمكن أن يردعه، إنه يريد أن يركب رأسه ويفعل ما يحلو له دون أيّ قيود من تحليل وتحريم ولوازم وتروك!

قال البغوي في تفسيره: «يقول: لا يجهل ابن آدم أنّ ربّه قادرٌ على جمع عظامه لكنه يريد أن يَفجر أمامه، أي: يمضي قدمًا على معاصي الله ما عاش راكبًا رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، هذا قول مجاهد، والحسن، وعكرمة، والسدّي»[10].

وفي الإتيان باللام قبل كلمة (يَفْجُر) فائدة بلاغية عظيمة، جاء في كتاب لمسات بيانية: » وانظر بعد ذلك كيف جاء باللام الزائدة المؤكدة في مفعول الإرادة، فقال: (بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ) والأصل أن يقال: (بل يريدُ الإنسانُ أنْ يَفْجُرَ)؛ لأن فعل الإرادة متعدٍّ بنفسه لا باللام كما قال: (يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ)[النساء: 28] .

غير أنه جاء باللام للدلالة على قوةِ إرادةِ الفجور والشهوات عند الإنسان وشدة الرغبة فيها«[11].

ثم جاءت الآية الأخرى في وسط السورة تبيّن مزيدًا من فضح أنفس الكفار؛ فقال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)[القيامة: 20- 21].

أيْ أنّ الذي حمل الإنسان على إنكار البعث كذلك حبّه للذة العاجلة وإيثارها على اللذّة الباقية الدائمة، وفي علاج حب النفس للعاجلة يقول طبيب القلوب الإمام ابن القيم -رحمه الله-: «وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق، وظهرت حقائق الرجال؛ فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذ ساعة لع الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإنّ الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثار العاجلة، ورفض الآخرة، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور، وأوائلها ومبادئها، وأمّا النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة، ويجاوزه إلى العواقب والغايات، فله شأن آخر»[12].

وفي آخر السورة جاء الجواب العقلي على من يظنّ أن الحياة مجرّد لهو ولعب واستمتاع؛ فنبّهت الأنفس إلى حقيقة بدهيّة، وهي أن الخالق الذي خلق الإنسان وجميع المخلوقات بحكمة وعلم وقدرة عظيمة لا يتصوّر أنه يفعل هذا عبثًا؛ لأنّ هذا ينافي الحكمة، فقال -عز من قائل- في آيات لا ردّ بعدها: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى)[القيامة: 36- 40].

سادسًا: من أوجه التأثير النفسي في المتلقّي وتمكّن الحجة: الإجابة بأكثر مما سأل عنه السائل أو الإجابات غير المتوقعة؛ فمن ذلك:

1- أنّ الكافر حينما استبعد جمع عظامه بعد الموت مرة أخرد؛ جاء الجواب ببيان قدرة الله أنه ليس فقط قادرًا على أن يجمع عظامه، بل هو قادر على جمع ما هو أدقّ من هذا: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)[القيامة: 4] ، وقد تكشّف لنا في العصر الحديث أن أطراف الأصابع تختلف في جميع البشر؛ فلا يوجد بصمتان متطابقتان ، وهذا من تمام قدرة الله، أن يعيد جمع خلق الإنسان مرة أخرى بكامل صفاته الفردية التي تختلف من إنسان لآخر.

2- وحينما سأل المنكِر للبعث على سبيل الاستبعاد: (يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) [القيامة: 6]، جاء الجواب مباغتًا مبدوءًا بحرف الفاء للدلالة على السرعة؛ فقال تعالى: (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)[القيامة: 7- 10].

فكأنها نقلت القارئ على الفور لمشاهد يوم القيامة وأهوالها، ومن عظمة التأثير النفسي هنا أيضًا أنّ الإجابة عن الأمر المستبعد من المخاطب يكون أبلغ إذا ذكرت التفاصيل ستحدث في هذا اليوم؛ وهذا أبلغ في التأثير والإقناع.

فحينما يقول لك إنسان مثلًا: إني رأيتُ والدك في المكان الفلاني، فتنكر هذا، فيبدأ بسرد تفاصيل عن والدك وهيئته وماذا كان يرتدي من الثياب وغيرها من التفاصيل، فحينها ستقف مندهشًا وقد أقنعك الكلام.

فكأنّ السورة تقول لمنكِر البعث: إذا عاينت أهول القيامة ساعتها ستقر بالحقيقة ولكن لا ينفعك بعد فوات الأوان، كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[الشعراء: 201].

سابعًا: استعمال أساليب الردع والزجر القوية:

حينما تريد تحذير إنسان من خطرٍ ما فإنك عادةً ما تستعمل عبارات تفيد هذا؛ نحو: احذر. انتبه. لكن إذا كان الخطر أكبر وأعظم؛ فإنك ستستعمل عبارات أشد في القوة لتناسب الحال.

وفي سورة القيامة، التي تريد إيقاظ القلوب للتفكّ ر في أهوال القيامة نجد أنه جاءت فيها ألفاظ تهديد قوية، فنجد أنها استعملت كلمة: (كَّلا) في ثلاثة مواضع في السورة.

﴿كَّلا لَا وَزَرَ﴾[القيامة: 11].

﴿كَّلا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾[القيامة: 20].

﴿كَّلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾[القيامة: 26].

و(كَّلا) هذه تستعمل في القرآن كثيرًا للردع والزجر، وهي سمة من سمات القرآن المكّي الذي يخاطب الكفار والمعرضين.

قال ابن عاشور: «(كَّلا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ) ردعٌ ثانٍ على قول الإنسان: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ

الْقِيامَةِ)، مُؤَكِّدٌ لِلرَّدْعِ الذِي قَبْلَهُ فِي قَوْلِهِ: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ). ومعناه زجر عن إحالة البعث؛ فإنه واقع غير بعيد، فكلّ أحد يشاهده حين الاحتضار للموت كما يؤذ ن به قوله: (إِى ر يَوْمَئِذٍ الْمَ َاقُ)، أتبع توصيف أشراط القيامة المباشرة لحلوله بتوصيف أشراط حلول التهيؤ الأول للقائه من مفارقة الحياة الأولى»[13].

- كما جاء في السورة على سبيل التهديد آيتان متتاليتان: (أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)[القيامة: 34- 35].

- كما استعملت السورة أسلوب الاستفهام في أول السورة وآخرها، وهو أسلوب فيه تشنيع على هذا المنكر.

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ)[القيامة: 3].

(أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)[القيامة: 36].

- وجاء في السورة أيضًا استعمال أسلوب الحذف، وهو من أساليب القرآن التي تُستخدم للتهويل، والحذف يكون في مواضع أبلغ في إيصال المعند؛ لأنّ النفس تذهب فيه كلّ مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمّنه البيان، ومن ذلك ما جاء في حذف بعض أنواع العذاب عن الكافر المكذِّب، كما في قوله تعالى: (تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا) بالبناء للمجهول؛ فكأن المعنى أن هناك عزيمة وتربّص به وأن هناك مريدين يريدون أن يفعلوا به وبفقار ظهره الأفاعيل.

ومن أساليب الزجر الظاهرة في السورة كذلك التهديد بسلب النعمة:

فمن أكثر ما يجعل الإنسانَ مستمرًا في غيّه هو ظنه الخاطئ أن ما لديه من نعم سيظلّ ويبقى، كما قال تعالى على لسان صاحب الجنتين في سورة الكهف: (...مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)[الكهف: 35]، فسكرة الاستغراق في نعيم البستانيْن اللذ يْن أنعم الله بهما عليه أنسته أن هذه النعمة لن تدوم ولهذا جاء في جواب المؤمن الذي كان يحاوره في نفس القصة منبّهًا إياه على هذا الظنّ الخاطئ الذي جعله يكفر بخالقه: (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)[الكهف: 40- 41].

وكذلك في سورة الهمزة: حين وصف -سبحانه وتعالى- حال الإنسان حال نعمة المال: (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)[الهمزة: 3] ، فجاء الردّ بعدها: (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ)[الهمزة: 4].

وهاهنا في سورة القيامة، أكّدت السورة على هذا المعنى.

1- ففجور الإنسان لركونه إلى الدنيا واطمئنانه بها لن يدوم، بل سيأتي يوم وتزول هذه الأرض بما فيها وستصبح صعيدًا جُرُزًا، ثم ذكرت السورة بعدها تغيّر أحوال هذا العالم حين يأتي يوم القيامة.

2- وهذه العاجلة التي ملكَت شغاف قلبه لن تستمر طويًلا، بل ستفن وتأتي الآخرة الباقية: (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ)[القيامة: 20- 21].

3- ونعمة سريان الروح في جسده التي جعلته يذهب يمنة ويسرة ويعصي ربه لن تدوم في جسده الفاني، بل سيأتي يومٌ وتُسلب منه هذه الروح ويفنى بعدها الجسد،

وحينما تخرج الروح وتبلغ التراقي لن يملك من أمره بعدها شيئًا: (وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ)[القيامة: 29- 30].

فتقديم الجار والمجرور في السَّوق: (إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ) يبيّن أنه لن يكون له أيّ اختيار؛ وإنما سيساق رغمًا عنه على عكس حاله في الدنيا من انقلابه لأهله وهو يتمطّى!

ثامنًا: توظيف الزمن في سورة القيامة مع حُسْن التخلّص من زمن لآخر:

تعاملتْ سورة القيامة مع الزمن تعاملًا عجيبًا ووظّفته لإيصال رسالتها أجمل توظيف.

فلمّا جاء في أول السورة ذكْر الفاجر الذي يكذب بالبعث وأن ما حمله على ذلك أنه يريد أن يستمر في فجوره في حاضره وما يستقبله من الزمن: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ)[القيامة: 5]، جاءت السورة ببيان سراب هذا المنهج؛ فبيّنت تعطيل آيتي الزمن يوم القيامة وهما الشمس والقمر إذْ هما اللذان نعرف بهما الوقت ونضبطه سواءٌ كان أثناء اليوم بحركة الشمس أو خلال الشهور بحركة القمر، فقال تعالى: (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)[القيامة: 9]، فلا زمن ولا توقيت وإنما هي حياة الخلود.

كما اشتملت السورة كذلك على كلّ أنواع الزمن التي يعرفها الإنسان.

فذكَرَ ت السورة ماضي الإنسان حين كان نطفة من منيٍّ يُمْنَى، ثم ذكرت حاضره وقد تملّك حب العاجلة قلبه فجعلته يؤْثها على الآخرة، ثم ذكر ت مستقبله (وهو

المعني أكثر في السورة) والذي يبدأ بلحظة خروج الروح حتى تبلغ التراقي، ثم تحد ّثت عن يوم القيامة وما فيه من أهوال عظام، وانقِسام الناس بعد الحساب إلى فريق في الجنة وفريق في السعير: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)، (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ).

ومَن تدبّرَ أمر الزمن في سورة القيامة سيلحظ سرعة التنقل بين الأزمان المختلفة مع حسن تخلص مِن زمن لزمن آخر تجعل القلبَ مذعنًا خاضعًا.

ففي أول السورة ذُكِر مستقبل الإنسان من يوم القيامة والبعث، ثم ذكرَت السورة الحاضر وحال الإنسان المكذّب بالبعث وهو يَ سأل مستبعدًا وقوع هذا اليوم، ثم ترجع السورة مرّة أخرى إلى المستقبل وتذكر تفاصيل هذا اليوم م ن برقٍ للبصر وخسف للقمر وجمع الشمس والقمر، ثم ذكر حال هذا المكذ ب وهو يحاول أن يجد أي مفرّ من هذه الأهوال ولكن ولات حين مناص، ثم تـر السورة هذا المكذّ بماضيه وما أخّر من أعمال كان ينبغي عليه أن يقدّمها، ثم تذكر الزمن المضارع حال تلقّي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الوحي، ثم ترجع بالمُكَذِّب بالبعث إلى الدنيا مرّة أخرى وتبيّن له أن حبّه للعاجلة ونسيانه الآخرة هو الذي أورده الموارد وجَع وجهه من الوجوه الباسرة، بعكس مِن آث الآخرة على الدنيا، ثم رجعت إلى المستقبل الأخروي وذ كّر حال الفريقين والتباين الكبير بين الوجوه الناضرة الناظرة لربها والوجوه الباسرة المنتظرة الدواهي العظيمة التي تكسر فقار الظهر، ثم ترجع السورة للدنيا مرّة أخرى وتذكر حال الاحتضار الذي هو أول مراحل الآخرة، وتوبّخ مِن لم يصدّق بالبعث ولم يِلّ ِ، ثم ترجع السورة بالإنسان إلى الماضي في أوّل مراحل خَلْقه حين كان نطفة ثم علقة ثم تربط هذا الماضي

السحيق من حياته إلى النهاية من بعث بعد الموت، وتتساءل بعد كلّ هذا التنقّل بين الأزمان، أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى؟!

تاسعًا: روعة الختام التي تجعل الحديث عالقًا في الذهن إلى ما شاء الله:

وأخيرًا تأتي روعة ختام السورة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[القيامة: 36- 40].

لقد لخّصَت هذه الآيات قصة الإنسان في الدنيا ومبدأه ونهايته، واستدلّت ب قدرة الله الذي ابتدأ خلقه على قدرته على إحيائه مرّة أخرى، ثم بيّنَت مشيئته في استمرار التناسل والتكاثر بين البشر بخلقه الزوجين الذَّكَر والأنثى، فبيّنَت حكمته -سبحانه وتعالى- عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا من الخلق والإيجاد والابتلاء ثم الجزاء بأوجز وأجمل بيان.

قال البقاعي: «لا يجوز في عقل عاقل أنّ صانعًا يصنع شيئًا ويتركه ضياعًا وهو حكيم أو حاكم، فكيف بأحكم الحكماء والحاكمين»[14].

وهكذا تأتي هذه النهاية الجامعة ملخِّصةً ومؤكدةً لكلّ ما جاء في السورة[15]، وهي تسأل الإنسان سؤالا تجعل السورة تعلق بذهنه حتى بعد الانتهاء من قراءتها، وكأنّ دويّ آخر آية يتردد في السمع:

أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟!

أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟!

أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟!

سبحانك اللهم فبَلى.

خاتمة:

إنّ القرآن الكريم كتابٌ بالغ التأثير على النفس وقد استخدم في سبيل ذلك أساليب عديدة ومتنوعة وهي حَرَة بالدراسة والتحليل، وقد تتبعنا في هذه المقالة طرفا من هذه الأساليب من خلال سورة القيامة، فكشفنا عن بعض ما حته السورة في هذا الجانب واجتهدنا في بيان ما اشتملت عليه السورة من أساليب لها بالغ الأثر في التأثير على نفس المتلقي لها بصورة بالغة العجب والقوّة، ونسأل الله تعالى أن ينفعنا بالقرآن، وأن يهدينا ويثبتنا ولا يتوفنا إلا وهو راضٍ عنّا، وأن يجعلنا من الآمنين يوم الفزع الأكبر.

---

[1] أشار الخطابي -كما هو معلوم- لمسألة إعجاز القرآن من خلال عظيم تأثير القرآن في النفوس، حيث قال: «قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس». بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ص70.

[2] وقد بنى الإمام ابن القيم -رحمه الله- كتابه: (التبيان في أيمان القرآن) على هذا؛ فجاء كتابًا نافعًا وفريدًا في فوائده؛ فرحمه اللهُ وجزاه خيرًا.

[3] التبيان في أيمان القرآن، ط. عطاءات العلم (1/ 22).

[4] معاني القرآن (3/ 208).

[5] مجموع الفتاوى (4/ 264).

[6] التبيان في أيمان القرآن، ط. عطاءات العلم (1/ 25).

[7] تفسير ابن كثير، ط. العلمية (7/ 83).

[8] للاستزادة حول البحث عن مناسبة هذه الآيات الأربع يمكن النظر إلى المراجع الآتية:
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (1/ 49).
- تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (30/ 726).
- كتاب: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، من ص202 وما بعدها.
- في ظلال القرآن، تفسير سورة القيامة.
- تفسير أبي حيان.
- نظام القرآن، الفراهي.
ولعلّنا نفرّد بحثًا في مناسبة هذه الآيات لموضوع السورة في مقال آخر بإذن الله.

[9] متفق عليه.

[10] تفسير البغوي، ط. طيبة، (8/ 281).

[11] لمسات بيانية، فاضل السامرائي، ص206.

[12] زاد المعاد في هدي خير العباد، ط. الرسالة، (4/ 179).

[13] التحرير والتنوير (29/ 356).

[14] نظم الدرر (21/ 115).

[15] مراجع أخرى يمكن الاستفادة منها في موضوع المقال:
1- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
2- تأويل مشكلات التناسب في القرآن الكريم. د/ محمد إبراهيم شادي.
3- التناسب بين الآيات، فايز السريح، دار الحضارة (إصدار حديث).
4- دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها. د/ عمر عليّ حسان عرفات. الناشر مؤسسة الرسالة ناشرون.